

الخطيب القزويني
جلال الدين محمد بن عبد الرحمن
في
سيرته وكتابه تلخيص المفتاح

د. ياسين الأيوبي^(٥)

- باحث من لبنان ترجمه للفترويني عدد كبير من الكتاب والمصنفين في عصره وفي العصور اللاحقة، من هؤلاء:
- 1- ابن كثير، في "البداية والنهاية" ج 10/ ص 145.
 - 2- تاج الدين السبكي، في طبقات الشافعية الكبرى، مجلد خامس/ ص 238 - 239.
 - 3- صلاح الدين الصفدي، في الوافي بالوفيات، مجلد 3/ ص 242 - 243.
 - 4- صلاح الدين الصفدي، في أعيان العصر وأعيان النصر، المجلد الرابع/ ص 492 - 499.
 - 5- ابن حجر العسقلاني، في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مجلد 4/ ص 3 - 6.
 - 6- ابن تغري بردي، في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المجلد التاسع/ ص 318.
 - 7- تقي الدين المقريري، في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الثاني، القسم الأول/ ص 470.
 - 8- تقي الدين المقريري، في المفتي الكبير الجزء الأول/ ص 38 - 43.
 - 9- جلال الدين السيوطي، في نغمة الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة ج 1/ ص 156 - 157.
 - 10- محمد بن علي الشهرستاني، في البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، المجلد الثاني/ ص 183 - 184.
 - 11- ابن العماد الحنبلي، في شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المجلد السادس/ ص 123 - 124.
 - 12- عبد القادر بن محمد النعمي في المدارس في تاريخ المدارس، الجزء الأول/ ص 196 - 197.
 - 13- طاش كبري في مفتاح السعادة الجزء الأول/ ص 169. والجزء الثاني / ص 217 - 218.
 - 14- حاجي خليفة في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون/ ص 210 - 211 - 473 - 1009 - 1692 - 1764.
 - 15- محمد باقر الخوانساري، في روضات الجنات/ ص 203 - 204.
 - 16- دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع/ ص 896.
 - 17- عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين، المجلد العاشر/ ص 145.
 - 18- خير الدين الزركلي في الأعلام المجلد، السادس/ ص 192.
- وعناوين أخرى وردت في الأعلام ومعجم المؤلفين ودائرة المعارف الإسلامية، وغيرها..

نسبه ومنشؤه ومهامه الأولى:

٥٥ محمد بن عبد الرحمن بن عمر... يصل نسبه إلى أبي دلف العجلي⁽¹⁾، أحد قواد المأمون والمعتصم، وأحد المشتغلين بصناعة الغناء والكتابة والشعر في زمانه.. ويلقبُ بجلال الدين أبي المعالي.. ولد في الموصل سنة 666هـ، وأقام في بلاد الكرج التي سكنها ومصرها أبو دلف العجلي، وهي كورة بين همدان وأصبهان⁽²⁾.
سكن جلال الدين هذه الناحية مع والده وأخيه، واشتغل وتفقه، حتى ولي قضاء ناحية بالروم وهو دون العشرين من عمره.

في دمشق

قدم دمشق، حوالي سنة 690هـ فدرس أخوه إمام الدين في تربة أم الصالح، بينما تابع للجلال علومه فسمع من الفاروتي (عز الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي) والفاروتي، نسبة إلى فاروت من قرى واسط⁽³⁾، كما أخذ المعقول عن شمس الدين الأيكي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد الفارسي المتوفى سنة 697هـ)⁽⁴⁾، وخرج له البرزالي (القاسم بن محمد المتوفى سنة 739 هـ) جزءاً من حديثه، وحدث به وتفقه.

ناب عن أخيه إمام الدين قاضي القضاة في دمشق سنة 690هـ، ثم ناب عن قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى المتوفى سنة 728هـ، في دمشق أيضاً، وكان ذلك سنة 705هـ، كما ولي خطابة الجامع الأموي مدّة.

وفي نيابته عن ابن صصرى وقع بينهما حدة في المواقف؛ إذ أنكر عليه نجم الدين إثباته أشياء لم يأذن له في إثباتها، فحلف أنه لم يفعل، فمنعه من الثبوت على الأيتام، وما لبث أن عزله من النيابة.

وفي أحد أيام سنة 724 هـ استقدم السلطان الناصر محمد بن قلاوون جلال الدين إلى القاهرة، فاجتمع به ساعة وصوله، وأمره أن يخطب بجامع القلعة، ففعل.

(1) هو القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي. توفي في بغداد سنة 226هـ/841م. وله عدد من المؤلفات النثرية والشعرية (معجم المؤلفين 109/8).

(2) معجم البلدان جزء رابع، ص 446.

(3) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة الدمشقي المتوفى سنة 858هـ/1448م. اعتنق بتصحّحه وعلق عليه الحافظ عبد العليم خان، مجلد ثان. دار الندوة. بيروت سنة 1987، ص 15 - 16.

(4) معجم المؤلفين، جزء تاسع/ ص 118؛ وفيه أن الأيكي فقيه، أصولي، صوفي، منطقي، عارف بعلوم الأوائل، وله عدد من التصانيف.

ولمّا فرغ، نزل فاجتمع معه فقَبِلَ يدَ السلطان، معتذراً عما كان عليه من أثر السفر.

ولم يكن يتوقع من السلطان أن يأمره بالخطابة، فشكره مقدّراً، وسأله (أي السلطان) عن حاله وكم عليه من الدّين، فذكر أن عليه ثلاثين ألف درهم، فأمر بوفائه عنه، وكان الأمير سيف الدين تنكز والي دمشق قد تشفّع له مع السلطان غبّاً علمه برغبة السلطان توليته قضاء دمشق، قائلاً: إن الجلال عليه ديون كثيرة ولا يصح أن يلي القضاء، وزاد في الطين بلة سوء سلوك ابنه عبد الله، فلن يحتمله الناس، فقال الناصر: أنا أوفي دينه، وأدع ابنه عندي بالقاهرة، فجهّزه السلطان، وسافر إلى دمشق، بعد أن صلّى صلاة الخسوف، لأن القمر قد خسف تلك الليلة.

ولما وصل إلى دمشق بأشر مهامه على أتم ما يكون، وصرف مال الأوقاف والمحتاجين.
فحكم القزويني بدمشق مع الخطابة؛ وقيل فيه، هو ثالث من اجتمعت له الخطابة والقضاء
بدمشق، وهم عماد الدين عبد الكريم بن عبد الصمد الحرستاني، وبدر الدين محمد بن جماعة،
والجلال محمد القزويني⁽¹⁾.

في مصر

لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِي نِصْفِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ 727 هـ، وَصَلَ الْبَرِيدُ إِلَى دِمَشْقَ؛ وَفِيهِ طُلِبَ إِلَى جَلَالِ الدِّينِ الْمُتَوَلَّى أَمَامَ السُّلْطَانِ بِالْقَاهِرَةِ، لِيُكَلِّفَهُ مِهْمَةَ الْقَضَاءِ فِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، عَوْضًا عَنْ قَاضِي الْقَضَاءِ فِيهَا بَدْرِ الدِّينِ بْنِ جَمَاعَةَ الَّذِي عَجَزَ عَنِ الْقَضَاءِ بِسَبَبِ ضُرَرٍ لِحَقِّ بَعِينِيهِ.

أمضى جلال الدين في مهمته حولاً كاملاً يقضي ويدرس في المدرسة الناصرية والمدرسة الصالحية، ودار الحديث الكاملية، إلى جانب خطابة جامع القلعة، شريكا لابن القسطلاني.

واستقر ابنه بدر الدين محمد في خطابة جامع بني أمية.

وكان إذا جلس في دار العدل، لم يكن لأحد منه كلام، ويذيل على ما يكتبه السلطان بهذه الدار ويرمل كل كلام للسلطان (أي ينشف الحبر عنه برش الرمل عليه).

عَلَّامُ شَأْنٍ جَلَّالُ الدِّينِ لَدَى السُّلْطَانِ إِلَى حُدُودٍ بَعِيدَةٍ، فَحَجَّ مَعَهُ إِلَى الدِّيَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَحَظِيَ مِنَ الْمَكَافَاتِ وَالْمُرْتَبَاتِ مَا يَكْفِيهِ وَيَفِضُّ عَنْهُ. وَأَحْسَنَ إِلَى أَهْلِ مِصْرَ وَإِلَى الشَّامِيِّينَ أَيُّمًا إِحْسَانًا، وَكَانَ فِي بَابِ السُّلْطَانِ ذَخْرًا وَمُلْجَأً لِمَنْ يَقْصِدُهُ مِنَ الشَّامِيِّينَ، يَشْفَعُ لَهُ وَيُسَاعِدُهُ عَلَى مَقَاصِدِهِ، وَيُصَلِّهِ عِنْدَ قُدُومِهِ وَعِنْدَ سَفَرِهِ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ. وَأَحْبَبَهُ الْمِصْرِيُّونَ، وَفَتَحَ لَهُمْ بَابَ الْإِسْتِغَالِ فِي الْأَصُولِ.

يذكر صلاح الدين الصفدي الذي كان معاصراً وتلميذاً للقرطبي، أنه شهد وهو عنده، محضراً لإحدى جلسات القضاء، وكان فيه شهود. فوقف على أسماء الشهود واحداً واحداً و"التفت وقال: من

(١) انظر كتاب المفتي الكبير، انتمى الدين المقرئري، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت سنة 1991، جزء أول/ ص 39.

هو فلان؟ فقال أحد الواقفين: أنا يا مولاي. فقال له: ما أنت الذي كان يعمل الدوادارية لفتى؟ قال: نعم. قال: ما هذه الحالة؟ فشكا بطلاة وقلة. فقال له: اصعد إلى فوق، وأجلسه. ولما انقضى ذلك الشغل وخف المجلس، ولم يبق إلا من هو به خاص، أخرج كيس النفقة ونفضه، فنزل منه ما يقارب المئة، فقال: خذ هذه وارفق بها في هذا الوقت وعد إذا فرغت⁽¹⁾.

لكن هذه السعادة الغامرة وذلك العز المطرد، لم يدوما على أبي المعالي، فسرعان ما استفحل أمر أولاده في الفساد، ولا سيما ولده الأكبر عبد الله الذي تجاسر بما لا يقدم عليه غيره، من الانهماك في اللهو، ومد يده إلى أخذ الأموال في الولايات؛ فأخرجه السلطان إلى دمشق، فأقام بها مدة، ثم تشفع له أبوه، فأعيد إلى القاهرة. لكنه لم يرعو. وعاد وزاد من سوء سلوكه وتدبيره، فأخرجه السلطان ثانية إلى دمشق وهذبه... فلم يطق والده الصبر على فراقه لفرط حبه إياه، فسأل في عودته، وضمن توبته، فأجيب إلى ذلك، وطلب إلى القاهرة.

فبسط يده في عمارة دار على النيل بجزيرة الفيل، فبلغت النفقة عليها زيادة على خمسمائة ألف درهم. فانطلقت الألسن في تناول الخطيب، فلم يعبأ بذلك، وقام ببناء دار له بالقاهرة، وأنفق فيها ثمانين ألف درهم، فاشتد النكير على الخطيب، ورفعت فيه وفي ابنه وبقيّة أولاده عدة قصص، للسلطان، بأنه لا يولي أحدا قضاء شيء من الأعمال إلا برشوة كبيرة؛ والسلطان يغضى عن ذلك لمحبتة له، إلى أن عمل فيه الشاعر حسن الغزي المتوفى سنة 753هـ⁽²⁾، قصيدة طويلة يعرض فيها بأولاده، وبالصارم مملوكه، ومنها، وفقاً لما ذكر المقرئ:

قاض على الأيتام سل صارماً بحدّه يلقط الدراهم

وشنّ من أولاده لهاذماً جرّدهم فانهكوا المحارماً

والشكل في المخبر مثل الأسد

يا ملك الإسلام يا ذا الهمة أزل عن الإسلام هذي الغمة

واحلّ بعبد الله سيف النعمة فأنه حجّاج هذي الأمة

واردغمة رذع كل مفسد⁽³⁾

(1) أعيان العصر وأعيان النصر، تحقيق د. علي أبو زيد ود. نبيل أبو عمشة، ود. محمد مرعد، ود. محمود سالم محمد. قدم له: د. مازن المبارك، دار الفكر العربي - دمشق، ودار الفكر العربي المعاصر، بيروت سنة 1998، المجلد الرابع ص 494 - 495.

(2) هو بدر الدين، الحسن بن علي بن أحمد. أديب شاعر. ولد بغزة، وأنشد بدمشق، وصفد، والديار المصرية، غالب شعره (معجم المؤلفين ج 3/ ص 248).

(3) كتاب المتقى الكبير، لتقي الدين المقرئ، جزء أول/ ص 42.

كان لذلك كبير الأثر في نفس السلطان الذي كَلَّفَ الدوادر أن يرسله إلى الشام، فامتثل القاضي القزويني لهذا الأمر، واضطر لإيفاء ديونه الكبيرة، ومنها مال كثير كان قد اقترضه من مال الأيتام ويبلغ 230 ألف درهم، إلى بيع معظم أملاكه وأثاثه. كذلك فعل ابنه عبد الله؛ فباع إحدى عشرة جارية ما بين ثمانية آلاف للجارية الواحدة إلى الأربعة الآلاف؛ ومن الجوهر واللؤلؤ بما ينيف على 120000 (المائة والعشرين ألف درهم).

عودته إلى دمشق ووفاتها فيها

سافر إلى دمشق ومعه ستون محارة، وفي كل محارة امرأتان (والمحارة: هودج) (1).
ولشدة حب السلطان له، أعاده إلى دمشق قاضي القضاة، كما كان أولاً. فحضر إليها وصحبه.
وصحب أولاده من المجلدات النظيفة النفيسة ما يزيد على الخمسة آلاف مجلد، وفرح الناس به.
ولكنه لم يمتع بالمقام، فأصيب بعلّة مضنكة لا شفاء لها هي علة الفالج، ربما بسبب النكسة
الاجتماعية والنفسية التي لحقت به جرّاء إبعاده عن الديار المصرية، وعن حياة العز بمقربة من
السلطان.. ولم يدم عليه الحال طويلاً، وتوفي منتصف جمادى الأولى من سنة 739هـ، ودُفن
بمقبرة الصوفية بدمشق؛ وشيّع جنازته خلق عظيم؛ وكثر التأسف عليه لما كان فيه من الحلم
والمكارم وعدم الشر، وعدم مجازاة المسيء إلا بالإحسان.

أوصافه وأخلاقه وأقوال الناس والأعيان فيه:

قال: ابن حجر العسقلاني، لم يوجد لأحد من القضاة، منزلةً عند سلطان تركي، نظيرَ منزلة جلال الدين.. وكان [أي السلطان] يحتمل ما يُنقل إليه من سير أولاده، حتى كان يقول لوالي المدينة: اكس فلاناً (أي اعتقله) ثم يرسل إليه يقول: لا تفعل! فبقي في حياء من والده⁽²⁾.

وقال العسقلاني: لمّا ولي قضاء الشام، رُفعت قصة في حقّ الشيخ علاء الدين القونوي⁽³⁾، ثم الخطيب جلال الدين القزويني، وفيها أن جلال الدين لا يصلح للقضاء، ونسيوه إلى شرب الخمر، ونسبوا أولاده لفعل الفواحش.. فقرئت على السلطان، واتهم بكتابتها جماعة، إلى أن تأملها كاتب السر، فوجد فيها: "علاء الدين الكونوني" (بالكاف) فحزر أنها خط هندي. فحصى عن أمرها إلى أن وجدوا فقيراً نزل عن قرب خانقاه سعيد السعداء، فوقع بينه وبين القاضي جلال الدين خلاف أوجب انتقاله إلى مصر، فكتب الرقعة ودسّها؛ إلى أن رُفعت للسلطان في دار العدل، وأمر بتعزيّره (أي

(1) نفسه/ ص 43. وفي الدرر الكامنة جزء 4/ ص 5. أن انخارات هي لعياله و عيال أولاده، كما ذكر اليوسفي في سيرة الناصر محمد، وذكر أنه شاهد ذلك بنفسه.

(2) الدرر الكامنة، الجزء الرابع، ص 6.

(3) علي بن إسماعيل بن يوسف القنوي، ولد بقونية، ولي قضاء الشام سنة 727 هـ / وتوفي سنة 729 هـ. (الأعلام: جزء رابع/ ص 264).

معاقبته) والتشهير به فوقعت فيه شفاعة فأطلق⁽¹⁾.

وقال صلاح الصفدي:

كان قاضي القضاة جلال الدين شريف الخلال، منيف الجلال، وارف الظلال، صارف الملل، طود حلم وبحر علم، يتموج فضائل، ويتبرجج براهين ودلائل، بذهن يتوقد، ويدور على قطب الصواب كالفرقد، قد ملأ الزمان جوداً، وجعل أقلام النشاء عليه ركعاً وسجوداً.

ولم ير قاض أشبه منه بوزير، ولا إنسان كأنه وفي أثوابه أسد يزير [أي يزار]، يجلس إلى جانب السلطان في دار عدله، ويغدو كالشمس بين أهله وأهله. مهما أشار به هو الذي يكون، ومهما حرّكه فهو الذي لا يعثره سكون.

جمع بين قضاء الشام والخطابة، وفاز في كلا المنصبين بالإصابة، وطلب إلى قضاء الديار المصرية، فسدد ما فسده، وعودته مكارمه «من شر حاسد إذا حسد». وأقام هناك مدة ينشر ألوية علومه، ويفيض على الناس سواكب غيومه. ثم إنه عاد إلى الشام عود الغمام إلى الروض إذا ذوى، والبدر التمام إلى الأفق الذي زل نجمه وهوى، فجدد معاهد الفضل والإفضال، وعمر غابه بالليث الخادر أبي الأشبال. ولم يزل على حاله إلى أن زال الطود، وزل وتفسح ذلك المطر الجود⁽²⁾.

وقال الصفدي أيضاً، متحدثاً عن فصاحته وبلاغته وجمال منطقته وهيئته وجملة خصاله ومواهبه:

كان فصيحاً بليغاً في وقت البحث والجدل، منطقياً إلا إذا علا صهوة المنبر، فإنه ليس ذلك لغلبة الحياء.

وكان مليح الصورة، حلو العبارة، كبير الذقن رسلها، موطأ الأكناف، سمحاً جواداً حلماً، جم الفضائل، حاذئ الذهن، يراعي قواعد البحث.

وكان يحب الأدب ويحاضر به، وله فيه ذوق كثير يستحضر نكته، ويكتب خطأ جيداً حسناً.

وعلى الجملة، فكان من أفراد الزمان في مجموعته، علماً وعقلاً وأخلاقاً.

وأجاز لي بخطه في سنة ثمان وعشرين بالقاهرة⁽³⁾.

أما تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة 771هـ، فقد عرف به بسطور موجزة، لكنه استعان بمعاصره جمال الدين بن نباتة المصري المتوفى سنة 768هـ، والذي كان له مع القزويني صلات ود وتقدير متبادلين، نتج عنها قصائد مدح كثيرة نظمها ابن نباتة فيه، سنعرض لها لاحقاً، لكنه خصه بغير موضع، في كتابه "سجع المطوق" قائلاً فيه، بلغة مرصعة بالتجنيس والسجع والمقابلة، على شيء من التكلف والتعسر:

(1) الدرر الكامنة، الجزء الرابع، ص 6.

(2) أعيان العصر، وأعيان النصر، جزء رابع/ ص 492 - 493.

(3) نفسه/ ص 495 - 496. ويلاحظ القارئ مئاة العلاقة بين الصفدي والقزويني لدرجة التلازم والإفادة التي انتهت بالإحازة.

الإمام المقدم على التحقيق، والغمام المنشئ في مروج مهارته كل روض أنيق، والسابق لرايات العلوم الذي أخلى له نحوها عن الطريق، والبادي المطل على دقائقها التي اعترف له بالتقصير ذوو التحليق، والهادي لمذاهب السنة الذي يشهد البحث أن بحر فكره عميق.. ناهيك من رجل على حين فترة من الهمم وظلمة من الدهر لا كالظلم، أطلعه الشرق كوكباً ملأ نوره الملاء، لا بل بدرأ لا يغتر بأشعة مواضعه الأعلون، فسر بنوره الإبل صباحاً، فيحمد لديه الطالب سراً، لا بل شمساً يتمثل في شخصه علماء الدهر الغابر مكان مرة مرآة مرآة..⁽¹⁾

ونقل تقي الدين، عن القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري المتوفى سنة 749هـ⁽²⁾، قوله: "من ولد أبي دلف ومن مدّد ذلك السّلف. وليّ الخطابة وسلا فيها، ورقى أعواد المنابر وهزّ غصنّها، وكان صدر المحافل إذا عقدت، وصيرفيّ المسائل إذا انتقدت، وكان طلق اليدين والكرم وإن كان بالدين.." ⁽³⁾.

وقال: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ومعظم ترجمته منقولة عن ابن حجر العسقلاني، مستغرباً انعدام نظم الشعر. فيما عدا قوله:

"لا أعلمه نظم شيئاً مع قوة باعه في الأدب.

وله من التصانيف: تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، وهو من أجل المختصرات فيه، وقد ملكته بخطه الحسن المليح، ونظمته في أرجوزة⁽⁴⁾.

وقال ابن العماد الحنبلي:

وفيهما [أي السنة التي توفي فيها القرويني] قاضي قضاة الإقليمين، جلال الدين محمد بن عمر.. حتى العجلى، الدمشقي.

قال الذهبي (الحافظ شيخ الإسلام شمس الدين):

أَفْتَى ودرَس وناظر و تَخَرَّجَ به الأصحاب. وكان مليح الشكل فصيحاً، حسن الأخلاق، عزيز العلم.. وقال الإسنوي: كان فاضلاً في علوم، كريماً مقدماً ذكياً مصنفاً⁽⁵⁾.

بعض ما قيل فيه من الشعر:

نظم فيه صلاح الدين الصفدي، عقب قدومه من الحج سنة 733 هـ، ووصله الديار

(1) طبقات الشافعية الكبرى، المجلد الخامس / ص 238.

(2) أحمد بن يحيى، شهاب الدين، أبو العباس، أديب، ناظم، ناثر، مؤرخ. ولد بدمشق وتولى القضاء فيها، وتوفي فيها. ومن مؤلفاته الشهيرة: مسالك الألبصار في ممالك الأمصار (عشرون مجلداً) (معجم المؤلفين) / جزء ثان / ص 204 - 205.

(3) طبقات الشافعية الكبرى، المجلد الخامس / ص 239. وقصد (بالدين) المال المكتسب لنفقة علمي، ديار و عياله.

(4) بغية العادة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر، القاهرة، طبعة ثانية سنة 1979، جزء أول/

.157.2

(5) شذرات الذهب في أخبار من ذهب. دار المسيرية، بيروت، طبعة ثانية سنة 1979. جزء سادس/ ص 123.

المصرية، قصيدة فائقة، من البسيط، قوامها تسعة وأربعون بيتاً، نورد منها ما يلي:

مَنْ خَصَّ ذَاكَ الْبَنَانَ الْغَضَّ بِالْتَرَفِ
وَضَمَّ فِي شَفْتَيْهَا دُرَّ مَبْسَمِهَا
وَحَلَّلَ الْفَرْقَ فَرْعاً مِنْ ذَوَائِبِهَا
عَلَّقْتُهَا مِنْ بَنَاتِ التَّرَكِّ قَدْ غَنِيَتْ
يَلْقَى الْمَتَيْمُ مِنْ تَتَقِيْفٍ قَامَتْهَا
ثُمَّ قَالَ:

يَا هَذِهِ إِنَّ لِلْأَشْعَارِ مَعْجَزَةً
ضَعِي بَنَاتِكَ مَخْضُوباً عَلَى جَسَدِي السَّ
إِنِّي لَأَعْجَبُ لِلْعَدَّالِ كَيْفَ رَأَوْا
أَلَيْسَ يَشْفُلُهُمْ طَيْبُ الثَّنَاءِ عَلَى
حَجٍّ غَدَا حُجَّةً فِي الدَّهْرِ ثَابِتَةً
وَرَأَى ذَا جَسَدٍ قَدْ طَابَ عُنْصُرُهُ
مَا مَسَّ طَيْباً وَإِنْ كَانَ الْحَجِيجُ بِمَا

تَبَقَّى عَنِ السَّلَفِ الْمَاضِينَ لِلْخَلْفِ
بِأَلِيٍّ لِيَجْتَمَعَ الْعَنَابُ بِالْحَشَفِ (4)
شَخْصِي وَقَدْ رَحْتُ ذَا رُوحٍ تَرْدُدُ فِي (5)
قَاضِي الْقَضَاةِ جَلالِ الدِّينِ، عَنْ شَغْفِي؟
إِنْ يَنْكَسِفُ نُورُهَا لِلشَّمْسِ تَنْكَسِفُ
عَارٍ مِنَ الْعَارِ، بِالْإِحْسَانِ مُنْتَحِفٍ
أَتْنُوا عَلَيْهِ غَدَوْاً فِي رَوْضَةِ أَثْفِ

(1) السداف، جمع سدفة، وهي الظلمة. أو ما بين طلوع الفجر إلى إسنار الصباح.

(2) الشنف، جمع شنف، وهو القرط تتخذ المرأة للزينة.

(3) قصد به الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق في العهد الأموي.

(4) تضمين رمزي لبيت امرئ القيس، من معلقته:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا
لَدَى وَكْرِهِمَا الْعَنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

(ديوان امرئ القيس/ شرح وتعليق د. ياسين الأيوبي، المكتب الإسلامي بيروت سنة 1998، ص 142).

والحشف: الثمر اليابس، لا طعم له ولا نوى. والعناب: شجر شائك، ثمرة أحمر حلو لذيق الطعم.

(5) تأثر بقول المتنبي:

رُوحٌ تَرْدُدُ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا
أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبُ، لَمْ يَبَيِّنْ

من قصيدة له في صباه، وهي من بواكير أشعاره. (شرح الواحدي لديوان المتنبي/ بشرح وتعليق الدكتور ياسين الأيوبي (بالاشتراك) دار الرائد العربي بيروت سنة 1999، المجلد الأول، ص 86).

فَكُلُّ رَكْنٍ إِذَا حَازَاهُ مَكْرِبُهُ
هَذَا الْإِمَامُ الَّذِي تَرْضَى حُكُومَتُهُ
حَبِيزٌ مَتَى جَالَ فِي بَحْثٍ وَجَادَ فَلَا
قَدْ زَانَ أَيَّامَهُ عَدْلٌ وَمَعْرِفَةٌ
لَوْ يَشْتَكِي النَّهْرُ مِثْلَ الْغُصْنِ عَنْهُ مَعَ (م)
بَلْ لَوْ شَكَ الدَّهْرَ خَضَمَ مِنْ بَنِيهِ غَدَا
دَامَتْ مَائِثَرُهُ اللَّاتِي أَنْظَمُهَا

فأجابه القزويني، بمقطع نثري، على جانب واسع من جمال الصنعة، ولطف الأداء، وبعد الخيال، مؤمناً إلى ملكة أدبية راسخة، ذات إشارات متاهية العذوبة والشفافية، وإن أكد ذلك شيئاً، فالذي قاله فيه السيوطي، من (أنه لم يقرأ له شعراً منظوماً)، وإلا لكان عليه أن يجيب الصفيّ بقصيدة مماثلة، كما هي الحال مع مقارضات الكتاب والشعراء...

يا مولانا هذه الأبيات التي تفضلتَ بإرسالها، وأنبطتَ معين زُلَّالها، ما أقول فيها إلا أنها ذهبٌ مسبوك، أو شيءٌ محبوبك، أو سترٌ ظلامٍ عن الذراريِّ مبيتوك، أو دمعٌ مسفوحٌ من صلبٍ دمه في الحب مسفوك؛ قد رق وراق وراع، وأمال الأعطافَ وشففَ الأسماع، وتألَّق في دياجي سطورهِ بَرَق معناه اللَّمَّاع.

كما تَلَعَّبَتْ فِيهِ بِضُرُوبِ الْفُنُونِ، وَخَضَّتْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ فِي شَجُونٍ، أَخْمَنْتَ أَرْجَ الْخَمَائِلِ مِنَ الْأَرْجَانِي، وَأَهْنَتْ مَا عَزَّ مِنْ أُبْكَارِ ابْنِ هَانِي:

وَأَخَذَتْ أَطْرَافَ الْكَلَامِ فَلَمْ تَدْعُ
قَوْلًا يُقَالُ وَلَا بَدِيعًا يُدْعَى

فكذا فليكن كلامُ الأفاضل، وكذا فليكن من يُناصر أو يناضل.
لقد تفضّل مولانا بأوصاف هو أحقُّ بها ممن وصفه، وأولى بأن يجعل إليه مرجعةً ومصرفةً..
والله يُمتّع الزمان وأهله بهذه الكلمات، ويمدُّ بعونه في الحركات والسكنات، إن شاء الله تعالى⁽³⁾.
وأما جمال الدين بن نباتة المصري، فقد خصّ الخطيب القزويني، بعدد غير يسير من القصائد

(1) إشارة إلى بيت الفرزدق:

ما أنت بالحقم الترضي حكومته ولا الأصل ولا ذي الرأي والجدل

(2) أعيان العصر وأعيان النصر، جزء رابع/ ص 496 - 498.

(3) أعيان العصر وأعيان النصر، جزء رابع/ ص 498 - 499.

أحصاها الباحث عمر موسى باشا، فبلغت ست مدائح، ومرثية واحدة⁽¹⁾.
أقدم هذه القصائد، تلك التي قالها عند تولي الخطيب قضاء دمشق ومطلعها:
يا بُروقاً على رُبى يَبرينِ أيّ بيضٍ أغمضتُ بين جفوني؟

وهي طويلة، تعدادها تسعة وأربعون بيتاً، نقتطف منها اللّمع الآتية:
وديارٌ من الأحبة أقسوتُ
فصّداها لبغدهم كالأثيين
درستُ فلهي لا تبيّن إلا
بالأسى تستفزّ قلب الحزين
كنتُ فيها أثرى الأنام من الصّب
—وّة، واللهو والصّبا والجنون
لستُ أسلو تلك المحاسن حتى
يتسلى الندى جلال الدين
ملتقى القصد مُرتقى المدح يهوى الـ
—رفد غيث الولي غيظ القرين
بخرُ فقه وإن تشأ فابن بخر
وخطيب يكفي الخطوب بلفظ
ففي ضروب البيان والتبيين
إن نظم المديح فرض علينا
يسنّتميل الصّخور بالتليين
أصل كل الأنام ماءً ولكن
كل يوم لعزمه المسنون
أنت من رائق وهم من أجون⁽²⁾

لقد أظهر ابن نباتة في مدحته تودداً بالغا وتبجيلاً قلما يقال إلا للسلطين وأمرء السلطة الذين يملكون المال والنفوذ والجاه. فهل كان الخطيب من هذا الصنف؟ قد يكون وجيباً وناقدًا في مهمته القضائية، لكن أنى له الثروة المأمولة، والنفوذ المطلق الذي أغدقه عليه الشاعر؟

ثم أنشده قصيدة ثانية، يُهنئه بتولي منصبه: قضاء القضاة في دمشق سنة 724هـ، ومطلعها:
سقى حمّاك من الوسمي باكره حتى تبسّم من غضب أزهرة

وتقع القصيدة في سبعة وثلاثين بيتاً، نورد منها الأبيات الآتية:
كم ليلة بت أشكو من تطاولها علي والأفق داجي القلب كافر
وأرقب الشهب فيه وهي ثابتة نائمًا سمرت منها مسامره

(1) ابن نباتة المصري، د. عمر موسى باشا. دار المعارف بمصر، القاهرة سنة 1972، ص 179.
(2) ديوان ابن نباتة المصري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا تاريخ ص 495 — 497. و(الأجون) في آخر الأبيات، مصدر [أجن] الماء أجنًا وأجونا: تغير طعمه ولونه ورائحته، (المعجم الوسيط/ أجن).

ما أحسن الدينَ والدنيا يسوسهما
تصبو لحبِر فتاويه لواحظنا
لا شيء أحسن من مرآة مُقتبلاً
وليت بالعلم لا بالخط مرتبةً
وانظر لحال غريب الدار مُفتقر
لئن تفرّد بالعلياء سوددُهُ
والطيلسان، فلا تخفى مفاخرُهُ
فما عيونُ المهّما إلا مخابرُهُ
إلا محاسنُ ما ضمت سرائرُهُ
فاحكم بعلمك فيما أنت ناظرُهُ
طال الزمان وما سُدّت مفاقرُهُ
لقد تفرّد بالأدب شاعره⁽¹⁾

بقيت القصيدة الأخيرة، وهي التي رثاه بها غداة وفاته، ضمّتها عصارة تكريمه وعمق مأساته
هو وكل طلاب العلم والجد والعدل، وكل من فقد فيه المقاصد النبيلة والمواقف المشهودة للقاضي
الراحل. وهي في ستة وثلاثين بيتاً [من الخفيف]، اقتطفنا منها الأبيات الآتية:
كلّ حيّ قاضٍ عليه زواله
يا جلالاً عن الزمان تقضى
قف بقبر الإمام يا نادب الفضل
وانثر الدُمع حول مَنّواة نثراً
ودع الشعر كان للشعر وقت
أقفرت ساحة الغلى فبيوت الشـ
عجبا من سريره يوم أودى
لو بقدر الأسى بكيت لسالت
لك منا نثرُ النسيم ثناءً
والى هذه السبيل مألوه
عزّ ربّ قضى، وجلّ جلاله
لِ وخلّ البكاء تهني سجاله⁽²⁾
مثل ما ينثر الكلام ارتجاله
بنداد وقد تغير حاله
غر من يغد يغده أطلاله
كيفما أورقت ورقّت ظلّاله
مُهجة كم وفّت لها أفضاله؟
ولنا بالأسى عليك اعتلاله⁽³⁾

لقد أثارت حياة القزويني، كما مماته، نفوس الكتاب والشعراء، فانبروا، كل في ميدانه، يترجم
عن مشاعر الإعجاب والإكبار لهذا الرجل في مهامه وسيرنه وآثاره العلمية، التي لم نحط بها كما
ينبغي لسببين، الأول، قلتها ونذرة الكلام عليها ما عدا "التلخيص" و"إيضاحه"؛ والثاني، أهمية هذين

(1) ديوان ابن نباتة المصري/ ص 198 — 199.

(2) السّجال، جمع سَجَل، وهي الدلو العظيمة المملوءة. أي دع البكاء، تنسكب الدموع من العيون انسكاب الدلاء بالمياه.

(3) ديوان ابن نباتة المصري/ ص 404 — 405.

الكتابيين الموازيين لعدد كبير من المصنفات التي نجدها لغيره من أعلام الكتابة في عصره. ولكن القصائد التي أتينا على ذكرها، تتم على حب الناس لهذا العلم البلاغي الفذ وعلى عمق العلاقة التي توطدت بينه وبين أهل العلم، مؤكدة على الدوام، جمال الوقع وديمومته، لكل أثر أدبي وفكري يتخطى حدود الذاتية الضيقة والصنعة اللفظية، إلى آفاق المعرفة الإنسانية في شتى الميادين.

تلخيص المفتاح

أقسامه، موضوعاته، شروحه وحواشيه

عندما وضع أبو يعقوب يوسف السكاكي، كتابه النفيس مفتاح العلوم، كانت علوم البلاغة لا تزال ترفد من كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لمؤسس النظرية البلاغية وصانها بامتياز، عبد القاهر الجرجاني. ولم يكن متوقفاً لهذا الكتاب أن يحظى بالعناية والاهتمام وتتناوله الأقلام، بمثل الذي تحقق على مدى الحقب والمراحل التي أعقبته.

لم يكن مفتاح العلوم بحد ذاته، عملاً جليلاً مميزاً، لولا القسم الثالث منه، الخاص بعلوم البلاغة العربية.. أما القسمان الأولان، المخصصان لعلمي الصرف والنحو، فلم يتجاوز أثرهما العلم والخبر لأهل زمانهما، إطلاعاً واتساعاً لآفاق اللغة العربية.

حتى القسم الثالث المشار إليه، ما كان ليبلغ ما بلغه من البحث والاستغفال عليه، لولا إقدام خطيب دمشق والقاهرة، وقاضي قضائهما جلال الدين القزويني، على تلخيصه وكشف مخبئه من كنوز الدرس البلاغي، ما جعله أهم مراحل التحول والاستقرار للنظرية البلاغية التي بدأت خيوطها الأولى مع أواخر كتاب بني أمية، ثم تطورت وتوطدت شيئاً فشيئاً حتى زمان السكاكي والقزويني، مروراً بعصر الجاحظ، ومحطات أخرى لابن المعتز، وقدامة بن جعفر، والآمدي، والقاضي الجرجاني، والباقلاني، وابن سنان الخفاجي، وابن رشيق، ثم محطة عبد القاهر الجرجاني، فالرمخشري، فابن الأثير، فالسكاكي..

فما الذي تضمنه كتاب التلخيص، وما آثاره الجانبية المتعاضمة باطراً حتى أواسط القرن الحادي عشر الهجري؟

أولاً: تلخيص المفتاح، أقسامه وموضوعاته

يقع كتاب مفتاح العلوم، في حوالي ستمائة صفحة من القطع الكبير الذي اشتملت عليه الطبعة الصادرة عن دار الكتب العلمية في بيروت سنة 1983؛ مائة وستون صفحة لقسمي الصرف والنحو، والباقي، أي الثلثان، لعلمي المعاني والبيان.

وهذا يعني كمّاً ملحوظاً في الكتاب، الأمر الذي دعا القزويني إلى القيام بتلخيصه وتشذيبه وتلخيصه من الحشو والتطويل، ومن موضوعات كثيرة بعيدة عن الدائرة البلاغية، ولا سيما موضوعات علم الاستدلال والعروض والقفافية.. فإذا به — أي التلخيص — يقف فقط على علوم

البلاغة ووجوهها.

وقد رتبها المصنّف كما يلي، بعد الفوائد التي أضافها؛ ليصبح الكتاب من أعظم ما صنّف في علم البلاغة نفعاً وتأثيراً:

مقدمة وثلاثة فنون

الفن الأول: علم المعاني، وفيه ثمانية أبواب:

1- أحوال الإسناد.

2- أحوال المسند إليه.

3- أحوال المسند.

4- أحوال متعلقات الفعل.

5- القصر.

6- الإنشاء.

7- الفصل والوصل.

8- الإيجاز والإطناب والمساواة.

* الفن الثاني: علم البيان، وفيه:

1- التَّشْبِيه.

2- الاستعارة.

3- الكناية.

الفن الثالث: علم البديع، وقد جعله في فصلين.

الأول خاص بالمحسنات المعنوية ويتضمن كلاماً في ما يقرب من ثلاثين ضرباً بديعياً.

والثاني خاص بالمحسنات اللفظية ويتضمن كلاماً في نحو خمسة عشر ضرباً بدعيّاً.

وهكذا يكون القزويني قد أرسى لأول مرة، وبصورة نظامية، قواعد علوم البلاغة ووجوه معالمها، مستفيداً من جميع الجهود العلمية التي قُدمت لهذا الغرض، طوال القرون الستة السابقة، وما تخللها من ومضات تنظير، ومحطات تأسيس وتنوير، لدى هذا العالم أو ذاك؛ إن دل على شيء، فعلى أصالة ما طرح وقدم من دراسات ومحاولات لتطوير الدرس البلاغي، من جهة، وعلى طواعية العربية وحسن تقبلها لأي جديد في نطاق ترسيخ الهوية البلاغية، من جهة ثانية، وعلى سعة الأفق العلمي، والملاكات اللغوية، وعمق الحسّ البلاغي الجمالي لدى الخطيب القزويني، من جهة ثالثة.

ثانياً: شرح التلخيص

أول من قام بشرح "التلخيص" هو الإمام القزويني نفسه، الذي رأى أن عمله في التلخيص، لم يحقق الغرض المنشود من نشر فضيلة البلاغة العربية، وبسبب موضوعاتها وقواعدها بين العامة والخاصة؛ فقام بوضع كتاب آخر، سمّاه: الإيضاح في المعاني والبيان، أو ما عُرف بإيضاح التلخيص، شرح فيه نكت "التلخيص" وغوامضه، وشأها بالأمثلة والشواهد الموضحة، وجعله على ترتيب كتاب "التلخيص". وكان بذلك خير كتاب وضعه القدماء في علوم البلاغة العربية.

"ولمّا كان هذا المتنّ — يقول حاجي خليفة — مما يُتلقّى بحسن التلقّي والقبول، أُقبل عليه معشر الأفاضل والفحول، وأكبّ على درسه وحفظه أولو المعقول والمنقول، فصار كأصله، محطّ رجال تحريرات الرجال ومهبط أنوار الأفكار، ومزدهم آراء البال، فكتبوا له شروحاً" (1).

ومن أهم الشروح التي كتبت للتلخيص، بالاستناد إلى كشف الظنون⁽²⁾.

* شرح الخلائي (محمد بن مظفر، المتوفى سنة 745هـ). تميّز هذا الشرح بإحساس صاحبه أنه أول من أقدم على شرح "التلخيص" فسمّاه: "مفتاح تلخيص المفتاح"، إذ أجاب فيه عن أجوبة ما اعترض به مؤلفه فيه وفي كتابه: الإيضاح، على صاحب "المفتاح".

* شرح الزوزني (شمس الدين محمد بن عثمان بن محمد المتوفى سنة 792هـ).

* شرح التفتازاني (سعد الدين مسعود بن عمر المتوفى سنة 792هـ) وكان "شراحاً عظيماً ممزوجاً".

* شرح ثانٍ للتفتازاني، اختصر فيه أشياء وزاد فيه أشياء، وقد فرغ منه سنة 756هـ، بينما فرغ من الشرح الأول سنة 748هـ. سَمَّى الأول: الشرح المطول، وسَمَّى الشرح الثاني، المختصر. "وهما أشهر شروحه وأكثرها تداولاً لما فيها من حسن السبك ولطف التعبير".

ثالثاً: مواشي الشرح المطول للتفتازاني

بلغت أهمية شرح النفطازاني، المطول، درجة عالية في الأوساط العلمية؛ فكتبت حوله حواش عديدة، زادت من قيمة التلخيص، فانسعت رقعة العناية بالنظرية البلاغية ووجوهها، في شتى العلوم البلاغية واللغوية.

عدّد منها حاجي خليفة خمس عشرة حاشية، نورها وفقاً للتسلسل التاريخي الذي اتبعه كشف
الظنون الذي لم يراع التدرج كما يجب:

(1) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزء أول/ ص 474.

(2) معظم المعلومات الواردة في هذا الفصل والمتعلقة بشروح التلخيص، وحواشيه، ومنظوماته، مأخوذة من كشف الظنون جـ //

- 1- حاشية الشريف الجرجاني (علي بن محمد المتوفى سنة 816هـ) ذكر أنه قيد عليه حواشي مجملّة حين قرأ عليه بعض الطلبة وسأله تفصيل ذلك، ففعل؛ فجاءت هذه الحاشية مشتملة على فوائد جليّة، بينها توضيح مقاصده، واعتراضات على الشارح التفتازاني، وتحقيقات لطيفة ترتاح لها الأذهان.
- 2- حاشية المولى المحقق حسن بن محمد شاه الفناري المتوفى سنة 886هـ، وهي حاشية تامة مشحونة بالفوائد.
- 3- حاشية المولى محمد بن فرامرز الشهير بملاً خسرو المتوفى سنة 885هـ، وهي على درجة حسنة من الفائدة، أجاب فيها عن اعتراضات القريني (أحمد بن عبد الله المتوفى سنة 879هـ) وقد وردت هذه الاعتراضات في حاشية خاصة كتبها هذا الأخير على الشرح المطول للتفتازاني.
- 4- حاشية أبي بكر السمرقندي (أبو القاسم الليثي، كان حياً سنة 888هـ). وهي تامة مقبولة في غاية الدقة والتحقيق.
- 5- حاشية المحقق الشيرازي (ميرزا جان حبيب الله المتوفى سنة 994هـ)، مفيدة تامة، لكنها نادرة الوجود.
- 6- حاشية شيخ الإسلام الحفيد (أحمد بن يحيى بن محمد المتوفى سنة 906هـ)، وهي تامة، لكنها صغيرة الحجم. وجاء في "الأعلام" جزء أول (ص 270) أنه كان قاضي هراة مدة ثلاثين سنة، وينتهي نسبه إلى سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الجروي، ويعرف بحفيد السعد، ونعت بالشهيد لأنه قتل بوشاية لدى الشاه إسماعيل بن حيدر الصفدي، وكتب حاشيته المذكورة وفرغ منها سنة 886هـ.
- 7- حاشية الفاضل مصلح الدين محمد اللاري المتوفى سنة 979هـ، وقد عرّف به الزركلي قائلاً: إنه فقيه شافعي، ينتسب إلى جلال الملتوي الأنصاري السعدي⁽¹⁾. وميزة هذه الحاشية أنها تعلّيق على أوائل شرح المطول.
- 8- حاشية الشاهرودي البسطامي (الشيخ علاء الدين علي بن محمد)، الشهير بمُصنّفك، ويعود سبب تلقّيه "بمُصنّفك" كثرة تصنيفه واشتغاله بالتأليف منذ الصغر. و(الكاف) فارسية للتصغير، وله عدد كبير من الحواشي والمختصرات والشروح على عدد كبير من الأعمال المعروفة في زمانه⁽²⁾. وكان به صمّ..
- 9- حاشية المولى القريني (أحمد بن عبد الله المتوفى بعد سنة 862هـ) وهي حاشية تامة، سمّاها المعول في شرح المطول، وقد فرغ منها سنة 856هـ.

(1) الأعلام، للزركلي ج 6/ص 196 - 170، وانظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ج 10/ص 93.

(2) الأعلام ج 5/ص 9.

- 10- حاشية مولانا أحمد الطالشي.. ولم نهتد إلى نسبه ووفاته، ولم يزد حاجي خليفة على ذلك سوى مفتتح الحاشية التقليدي، بحمد الله.. الخ.
- 11- حاشية البسطامي (شمس الدين محمد بن أحمد المتوفى سنة 842هـ)، ولم نهتد إلى ترجمته في المصادر التي نحوزها.
- 12- حاشية ابن جماعة (عز الدين محمد بن أبي بكر المتوفى سنة 819هـ).
ذكر حاجي خليفة أن له ثلاث حواش على المطول، سمّاها: المبين، والمفصل، ولم يُسمّ الثالثة. لكن عمر رضا كحالة الذي عرّف به وقال إنه تتلمذ لابن خلدون، ذكر له عدداً من المصنفات والحواشي، ليس فيها شيء عن حواشيه هنا⁽¹⁾.
- 13- حاشية الشيخ السيرامي (يحيى بن سيف الدين - وفي معجم المؤلفين: بن يوسف⁽²⁾) - المصري الحنفي المتوفى سنة 833هـ).
وهي شرح كتبه على المطول، يشتمل على دقائق وقواعد وضوابط، جعلها تحفة الدهر؛ فرغ منها سنة 830هـ.
- 14- حاشية المولى القاضي السامسوني (حسن بن عبد الصمد المتوفى سنة 891هـ).
وهي تعلّيق على بحث الحقيقة والمجاز.
- 15- حاشية الخطابي (مولانا نظام الدين عثمان المتوفى سنة 901هـ) وفي معجم المؤلفين⁽³⁾:
أحمد بن عثمان السمرقندي الخطابي الشافعي الشيرازي بمنلازدة المتوفى في حدود سنة 901هـ.

رابعاً: حواش على حاشية الشريف الجرجاني

ذكر منها حاجي خليفة ثلاثاً، هي:

- 1- حاشية مصلح الدين الرومي (مصطفى بن حسام) ولم نهتد إلى ترجمته، أجاب فيها عن اعتراضات المولى خسرو على الشريف، لكنه أطال وأطنب.
- 2- حاشية المولى الكرمانستي (يوسف بن حسين المتوفى سنة 906هـ). وهو قاض في المذهب الحنفي، متكلم وبياني فقيه، معظم آثاره في الفقه الحنفي⁽⁴⁾.
- 3- حاشية الشريف مرتضى المتأخر ذكره.. ولم يتوضح شيء عنه وعن حاشيته.

(1) معجم المؤلفين، ج 9/ ص 111 - 112.

(2) معجم المؤلفين، ج 13/ ص 236.

(3) نفسه، جزء أول، ص 310.

(4) نفسه، جزء 13/ ص 29.

خامساً: حواش على الشرح المختصر للتمتازاني

وُضِعَ على هذا الشرح حواش عديدة، ذكر منها حاجي خليفة، اثنتين:

1- حاشية مولانا نظام الدين عثمان الخطابي. مشهورة منذاوله، لكنها اقتصرت فقط على أوائل الشرح، ولم تهتد إلى المزيد من ذلك.

2- حاشية اليزدي (عبد الله بن شهاب الدين، وفي معجم المؤلفين⁽¹⁾: عبد الله بن الحسين المتوفى سنة 1015هـ، وفي الحاشية: 981هـ).

وهي حاشية مقبولة، مفيدة، فرغ من تأليفها سنة 962هـ بالمدرسة المنصورية.

ولليزدي هذا حواشٍ أخرى، منها حاشية على حاشية الخطابي المذكور أعلاه، وحاشية على الشرح المختصر على التلخيص للسعد النفذاني.

ولم يفت حاجي خليفة أن يذكر لنا حواشي أخرى على حاشية الخطابي عدد منها عشر حواشٍ هي كالآتي:

(1) حاشية عبد الله بن شهاب الدين اليزدي، مقبولة مفيدة.

(2) حاشیة الفاضل میرزا جان حبیب اللہ شیرازی، المتوفی سنة 994ھ، ذکر فيها أنه لخص فرائد مولانا زاده.

(3) حاشية إبراهيم بن أحمد الشهير بابن الملاء الحلبي، سمّاها: "غاية سؤل الحريص من إيضاح شرح التلخيص".

(4) حاشية ابن الملاء الحلبي، حاشية صغرى، سمّاها: "الروض الموشى من التحرير على شرح المختصر المحشى".

(5) حاشية المولى يوسف بن حسين الكرماسنتى المتوفى سنة 906هـ.

(6) حاشية حميد الدين بن أفضل الدين الحسيني.

(7) حاشية شيخ الإسلام أحمد بن يحيى بن محمد الحفيد المتوفى سنة 916هـ، فرغ منها في سنة 886هـ.

(8) حاشية مصلح الدين مصطفى بن حسام الرومي.

(9) حاشية المولى محمد بن الخطيب، الشهير بخطيب زاده الرومي المتوفى سنة 901هـ.

(10) حاشية شهاب الدين أحمد بن قاسم العبادي الأزهرى المتوفى سنة 994هـ.

جمعها بعض تلامذته من خطه في هوامش المختصر، من غير حذف شيء؛ ورمز إلى المنقول عنه بالحروف، فإنه كتبه من فوائد حواشي كل من الشريف الجرجاني، وناصر الدين الطبرلاوي،

(1) نفسه، جزء 13/ ص 49.

والسيد عيسى الصفدي، وابن جماعة، فصارت حاشية عظيمة مفيدة إلى الغاية.

سادساً: من بقايا شروح التلخيص

عدّد كشف الظنون منها عشرة شروح.

- 1- شرح البابرسي (العلامة أكمل الدين محمد بن محمود، المتوفى سنة 786هـ) فرغ من تأليفه في رمضان من سنة 772هـ، نبّه فيه على ما ورد عليه من الاعتراضات، وأشار إلى أجوبتها.
- 2- شرح السُّبكي (بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي، المتوفى سنة 773هـ) سمّاه: عروس الأفراح، وهو شرح ممزوج مبسوط.
- 3- شرح ناظر الجيش الحلبي (محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد بن عبّيد الدائم المتوفى سنة 778هـ).
- 4- شرح التّبّاني الثّيري (جلال الدين رسولاً بن أحمد بن يوسف، المتوفى سنة 793هـ).
- 5- شرح القونوي الحنفي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الياس المتوفى سنة 788هـ) وسمّاه: التلخيص.
- 6- شرح القيصري (محمد بن أحمد بن الموفق) فرغ منه في رمضان سنة 761هـ.
- 7- شرح نفرة كار (السيد عبد الله بن الحسن، المتوفى سنة 750هـ).
- 8- شرح ابن عربشاه الإسفراييني (المحقق عصام الدين إبراهيم، المتوفى سنة 945هـ)، وهو شرح ممزوج عظيم يقال له: الأطول.
- 9- شرح التبريزي (محمد بن محمد بن محمد) سمّاه: نفائس التنصيص، صدر متأخراً عن شرح السعد النقتازاني.
- 10- شرح مسمّى توضيح فتوح الأرواح، شرح كبير، لم يُسند إلى واحد بعينه.

سابعاً: شرح شواهد التلخيص

لم تقف عناية الدارسين عند حدود الشرح والحاشية وحاشية الحاشية، بل ذهبت إلى الشواهد الشعرية التي استخدمت في التلخيص وإيضاحه، ووضعت فيها كتب خاصة تناولت هذه الشواهد بالشرح والتحليل والتأويل، وترجمة أصحابها، والوقوف على شواهد أخرى في بابها ومنحاهـا.. ذكر منها خليفة كتابين اثنين، لعلهما الأفضل والأشهر وهما:

- 1- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي المتوفى سنة 963هـ.

ذكر فيه معاني الأبيات، وتراجم قائلها، ووضع في كل فن ما يناسبه من نظائره الأدبية،

ومزج فيه الجد بالهزل، وأهداه إلى أبي البقاء محمد بن يحيى بن الجيعان.
ولم يصرِّح العباسي باسمه مكتفياً بصفة قاضي القضاة: "سيدنا ومولانا سعدي قاضي
القضاة بتخت الملك قسطنطينية العظمى" (1).

ويذكر خليفة أن العباسي قام بتلخيص كتابه هذا مقتصراً فيه على الشواهد وشروحها فقط.

2- التخصيص في شرح شواهد التلخيص، للشيخ بدر الدين محمد بن رضي الدين محمد الغزّي مفتي الديار الشامية، المتوفى في حدود سنة 984هـ.

ثامناً: مختصرات التلخيص

تتابعَت الدراسات حول كتاب التلخيص، بصورة عكسية، أي الاختصار والاقتضاب، عوضاً عن الشرح والحاشية والإسهاب، فعمدت طائفةٌ من الكتاب والمصنفين، إلى نقطة البداية: الاختصار والتلخيص؛ وهو ما انطلق منه القزويني نفسه. لكنهم وجدوا في ما تراكم من شروح وحواشٍ وحواشي الحواشي، ضرباً من الإفراط والتطويل الذي أغرب وأوغل في آفاق لا حدود لها، فلزم التنبُّهُ والانضباطُ في ارتياد المسلك المفيد الواضح؛ فلم يكن بدُّ من الاختصار، والاكتفاء بالمضمون المرسوم في أصل الكتاب. فهل تحقَّق لهم ما شَدُّوا إليه رحالهم، وجعلوه غرضهم وجميل منوالهم؟

لا نرى ذلك، لأن الوتيرة التي نهجوها، مالت بهم من النقيض إلى النقيض، فكانت لنا عُدَّةٌ عديدة من المختصرات بلغت رقماً عالياً، عدَّد منها كشف الظنون، ثمانية نوردها كما يلي:

1- تلخيص التلخيص، للصاحب (شهاب الدين أحمد بن محمد، المتوفى سنة 788هـ)، سمّاه: لطيف المعاني.

2- تلخيص التلخيص، للتوقاتي (لطف الله بن حسن التوقاتي، المتوفى سنة 904هـ).
والتوقاتي، نسبة إلى توقات: بلدة في أرض الروم بين قونيا وسواس. والكاتب هنا حنفي المذهب، تركي الأصل والمنشأ، له تصانيف ورسائل علمية في أغراض شتى؛ فمات قتلاً بسبب عناده وعنفه في مناقشاته العلماء⁽²⁾.

3- تلخيص التلخيص، للعيني (زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن أبي بكر، المتوفى سنة 893هـ)، سماء: تحفة المُعاني لعلم المعاني.

4- تلخيص التلخيص، لابن جماعة (عز الدين محمد بن أبي بكر، المتوفى سنة 819هـ).

5- تلخيص التلخيص، للمولى برويز الرومي، المتوفى سنة 987هـ، وله شرح على مختصر د.

(1) مقدمة "معاهد التنصيص" تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. عالم الكتب، بيروت سنة 1947، ص 4.

(2) انظر الأعلام جزء 5/ ص 242، وفيه قائمة من مصادر ترجمته ومراجعها.

6- **تَلْخِصِ التَّلْخِصِ**، لابن طورغود (نور الدين حمزة) أُلْفَه في طريق الحجِّ سنة 962هـ، رَتَّبَه على مقدمة، وثلاث مسالك، وخاتمة، وسمَّاه: المسالك.. ثمَّ شرَّحه شرحاً ممزوجاً وسمَّاه: اليهودي.

7- تلخيص التلخيص، لبعض شراح "المطول" (للتفتازاني) سَمِي:
أقصى الأمانى في علم البيان والبدیع والمعاني، رُتِبَ على مقدمة وثلاثة فنون، ثم شُرح،
فسمي: فتح منزل المثاني. سلك فيه مسلك الإيجاز.

8- **تلخيص التلخيص**، للعالم خضر بن محمد الأماصي، ألفه سنة 1060هـ، وجعل اسمه: أنبوب البلاغة ثم شرحه وسمّاه، إفاضة الأنبوب. وهو شرح ممزوج.

تاسعاً: منظومات التلخيص

لم يعد أمام الكتاب والمصنفين، من عمل يقومون به، في هذا الكتاب، سوى النظم، وهو مزية شاعت في العصور الوسطى، عندما أقدم بعض العلماء والدارسين على نظم العلوم، ولا سيما التي تشعبت وأشكل شرحها، لكثرة الآراء والتفريعات.

وفي طليعة هذه المنظومات، ألفية ابن مالك (جمال الدين، محمد بن عبد الله الطائي المتوفى سنة 672هـ) جمع فيها مقاصد العربية، وسماها الخلاصة. وإنما اشتهرت بالألفية لأنها ألف بيت في الرجز، وأولها:

قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مَالِكٍ أَحْمَدُ رَبِّي اللَّهُ خَيْرُ مَالِكٍ⁽¹⁾

وهناك ثمانى ألفيات منظومة، لعدد من الشيوخ والنحاة والفقهاء، في النحو وأصول الحديث، والتعبير، والبلاغة، والتصريف، والفقه، والفرائض، وغيرها.

* كالأفنية الشيخ زين الدين يحيى بن عبد المعطي، المتوفى سنة 928هـ، وهي في النحو.

* وألفية الشيخ الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى سنة 806، في أصول الحديث، ومطلعها:

يقول راجي ربّه المقدر

عبدُ الرحيم بنُ الحسين الأثري

* والألفية في المعاني والبيان، للشيخ برهان الدين إبراهيم بن محمد القباقي الحلبي المتوفى سنة 850هـ.

* والألفية في الفرائض، للقاضي محب الدين محمد بن الشحنة الحلبي المتوفى سنة 815هـ⁽²⁾.

* ومن المنظومات في علوم العربية وعلوم القرآن، إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز، وفي

(1) كشف الظنون، جزء أول/ ص 151.

(2) نفسه، جزء أول/ ص 155 - 157.

القراءات الأربع عشرة لشمس الدين محمد بن خليل بن القباقي الحلبي المتوفى سنة 849 هـ⁽¹⁾

* ومنظومات متعددة في المذهب الشافعي المتعلقة جميعها بكتاب:

الحاوي الصغير في الفروع، للشيخ نجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القرويني، المتوفى سنة 665هـ.

* وقد نظمه الملك المؤيد إسماعيل بن علي الأيوبي المعروف بصاحب حماء المتوفى سنة 732 هـ، وشرح هذا المنظوم القاضي شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم بن البارزي الحموي المتوفى سنة 738 هـ.

* ثم نظمه زين الدين علي بن حسين بن قاسم بن الشيخ عونية الموصلي الشافعي المتوفى سنة 755هـ.

* ونظمه زين الدين عمر بن مظفر الوردى الشافعى المتوفى سنة 749هـ وسمّاه: البهجة الوردية، وتقع فى خمسة آلاف بيت من الشعر، أولها:

قال الفقيرُ عمرُ بنُ الوردي

وهكذا هي حال معظم العلوم والأصول التي قام بنظمها الكتاب والشعراء في العصور المملوكية والعثمانية، نال منها "تلخيص المفتاح" وإيضاحه، عدداً غير يسير، ذكر منها حاجي خليفة خمس منظومات هي على التوالي:

1- منظومة لزيـن الدين أبي العز طاهر بن حسن بن حبيب الحلبي المتوفى سنة 808هـ،
تعداد أشعارها ألفان وخمسمائة بيت. سمّاها: "التخليص في نظم التلخيص".

2- منظومة لشهاب الدين أحمد بن عبد الله الفلجي المولود سنة 829هـ والمتوفى سنة 892هـ.

3- منظومة لزين الدين عبد الرحمن بن العيني، المتوفى سنة 893هـ، وله شرح لألفية ابن مالك، وشرح المنار في أصول الفقه.

4- منظومة لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى سنة 911هـ، وسماها: "عقود الجمان في المعاني والبيان" ثم شرحها، وسماها: "حلّ عقود الجمان". وله نكت على التلخيص، وتخريج أبيات، مروية بالإسناد، مع ذكر القصيدة عليها.

5- منظومة للشيخ أبي النجا ابن خلف المعري، ولد سنة 849هـ.

(1) نفسه، جزء أول / ص 209.

(2) نفسه، جزء أول/ ص 626 - 627.

188

